الفصل الرابع

المواد الخام التى صنعت منها
المنسوجات التى استعملت فى التطريز

obeikandl.com

obeikandl.com

المواد الخام التى صنعت منها المنسوجات التى استعملت فى التطريز

أما عن المواد التى استعملت فى التطريز فهى كثيرة سنتناول كل منها على حدة .

الكتان :

لاشك أن الكتان هو النبات الوحيد الذى تعتبر أليافه أقدم الألياف التى استعملت فى صناعة الغزل والنسيج منذ أقدم عصور مصر التاريخية .

وتدل دقة بعض قطع النسيج الإسلامى على أن المصريين قد وصلوا إلى درجة عظيمة فى استنبات أجود أنواع الكتان وإعداده إعداداً صحيحاً لعملية الغزل ثم غزله بطريقة مكنتهم من إيجاد خيوط بدرجات غاية فى الدقة ساعدتهم على إنتاج مثل هذه القطع الدقيقة.

وقد أكثر كتاب وعلماء علم النبات فى العصر الحديث عن زراعة الكتان وطريقة إعداده لعملية الغزل والتبييض وما إلى ذلك من العمليات اللازمة لنسجه . ومن أهم هؤلاء الكُتّاب ابن العوام .

ولقد برع المصريون منذ أقدم العصور فى غزل الكتان ، أى تحويل أليافه إلى خيوط معدة للنسيج ، فقد رأينا فى الرسوم التى وجدت فى مقابر الأسرات من الحادية عشرة إلى الثالثة عشرة ببنى حسن ما سطر عليها من نقوش تمثل هذه الصناعة والأدوار التى تمر بنبات الكتان من تعطين ودق وتمشيط وغزل ونسج . وهذه العمليات تشابه فى كثير من نواحيها تلك التى كانت مستعملة فى العصر الإسلامى وحتى العصر الحديث والتى أوردها ابن العوام فى كتابه السابق الإشارة إليه .

أما عن طريقة غزل ألياف الكتان بعد إعدادها فيتضح لنا من النقوش المصرية القديمة أن المصريين القدماء قد عرفوا طريقة الغزل الرطب للألياف المتخشبة والتى تعد أحدث عمليات الغزل فى الوقت الحاضر للخيوط الرفيعة . أما عن طريقة عملية الغزل

الرطب ، كما جاء فى كتاب خامات النسيج ، هو تندية الألياف المعدة للغزل وذلك بأن تبل اليد بلاً خفيفاً ثم تمرر على الألياف أثناء عملية (المز) حتى تتماسك الألياف بعضها ببعض. وبواسطة طريقة الغزل الرطب توصل المصريون منذ أقدم العصور إلى غزل خيوط غاية فى الدقة والإنسجام .

وقد ورد فى كتب بعض الرحالة إشارات متناثرة عن المدن والقرى التى تنتج الكتان فى العصر الإسلامى ، فيذكر ابن حوقل محلة بنها وبوصير وسمنود وكلها تنتج الكتان وتصدره إلى جميع أنحاء العالم المعروف فى ذلك الوقت . وهناك مجموعة أخرى من المدن تقع إلى الغرب مثل مدينة شطا وسنهور ، كما يذكر ابن بطوطة دلاص وبوش على أنهما من أكبر المدن إنتاجاً للكتان بمصر وهما بمنطقة الفيوم . كذلك يذكر المقدسى الفيوم وبوصير ضمن البلاد المنتجة للكتان .

ومن مصر انتشرت صناعة الكتان إلى أوروبا وخاصة إيطاليا وأسبانيا وألمانيا وفرنسا وذلك فى العصور الوسطى أثر الحروب الصليبية التى كانت سبباً فى نقل الكثير من الحضارة الإسلامية وكذا الصناعات إلى العالم الغربى . ويقال أن أول قطعة من الكتان صنعت فى أوروبا ترجع إلى القرن الرابع عشر وهى من صناعة إيطاليا ومحفوظة الآن بمتحف النسيج بسويسرا . والواقع أو أوروبا كانت تستورد الكثير من الكتان المصرى لأنها كانت تستخدمه فى الأغراض الدينية ولذلك فإن مصر كثيراً ما كانت ترسم عليه صور السيد المسيح وقصص من التوراه والإنجيل .

وإذا تتبعنا تاريخ الكتان فى مصر لوجدنا أن هذه الخامة التى كانت تعتبر المحصول الأول فى اقتصاديات مصر طوال العصور القديمة والوسطى بدأ ينافسها خامات أخرى بالنسبة لصناعة المنسوجات فى نهاية العصر الفاطمى ، وهذه الخامة الجديدة هى الحرير . حقيقة أن مصر عرفت الحرير وكان يستورد من الشرق الأقصى . وفى العصر اليونانى والرومانى كانت مصانع الإسكندرية المعروفة بإسم (Gossypium) هى المصانع الوحيدة

المصرح لها بصناعة الحرير الأحمر للأمبراطور اليونانى أو الرومانى .

أما فى العصر المملوكى فقد أصبح الحرير الخامة الأولى بالنسبة لصناعة النسيج ليس لأن مصر أصبحت منتجة للحرير الخام ولكن لأن مصر أصبحت هى المسيطرة على تجارة الشرق الأقصى الذى كان يأتى إلى البحر الأحمر وينتهى عند مدينة القلزم (السويس) الحالية ، ومن ثم بدأت تقل صناعة المنسوجات الكتانية وظهرت منسوجات الديباج والدمقس والأطلس والزردخان وكلها مصنوعة من الحرير . ولكن ليس معنى هذا أن النسيج الكتانى قد اختفى وإنما الواقع أنه أصبح قاصراً على أنواع معينة من المنسوجات المزخرفة التى لا يمكن أن ينافسه فيها أى نوع آخر من أنواع المنسوجات ، وهى المنسوجات المطرزة . (لمزيد من التفصيل راجع "ثريا نصر - رسالة الماجستير ١٩٧٢ ، النسيج المطرز فى العصر العثمانى ٢٠٠٠") .

الصوف :

يعد الصوف ثانى خامات النسيج فى الأهمية بعد الكتان فى مصر ، وذلك فى العصر الإسلامى ، أما فى العصر الفرعونى فلم يكن الصوف ذا أهمية تذكر فى صنع الأقمشة . ويرجع السبب فى ذلك لعدم صلاحية صوف الأغنام التى كانت موجودة وقتئذ للغزل ، ولاعتقادهم بعدم طهارته ، لذلك فإنهم كانوا ينسجون منه ملابسهم الخارجية التى كانوا يخلعونها عندما تطأ أقدامهم حرم معابدهم .

أما فى العصر البطلمى فقد كان الصوف يلى الكتان فى الأهمية واستمر الحال على ذلك حتى العصر الإسلامى ، فقد ورد ذكر منسوجات مصر الصوفية فى كثير من المراجع وكما هو ثابت من القطع التى وصلتنا والتى ترجع إلى العصر الإسلامى . وعندما فتح الرومان مصر تزايد الإهتمام بتربية الأغنام للحصول على أصوافها لاستعماله فى المنسوجات الفاخرة التى يلبسها علية القوم . لذلك فقد عنى المصريون عناية خاصة بتربية الأغنام ، فقد كان يتم غسلها فى فترات منتظمة ويدهن صوفها بالزيوت النقية ويمشط

شعرها حتى تأتى الصوفة ناعمة . وهكذا كانت الملابس الصوفية فى العصر الرومانى غاية فى الدقة والإتقان حتى أنها حليت بالخيوط الذهبية وزركشت بالجواهر والياقوت ، كما صبغت بصبغات متعددة حتى الألوان الزاهية التى لم تكن تصلح من قبل فى الأصواف الرديئة.

ويذكر بلوتارك (Plutarch) وكذا ديودور (Dioder) أن الرومان هجنوا الأغنام المصرية للحصول على محصول من الصوف الجيد ، فقد أخذ أحد حكام الإمبراطور كلوديوس قطيعاً من أغنام شمال إفريقية وهجنها بأخرى مصرية وأقام لها المراعى فى أسبانيا فاتت بأحسن أنواع الصوف وأشهرها الذى عرف فى التاريخ القديم باسم صوف (مرنيوس) . والذى انتشر فى فرنسا وانجلترا وأستراليا ، بعد أن أرسل ملك أسبانيا إلى تلك البلاد هدايا من الأغنام المهجنة لملوكها . وقد بلغ من حرص ملك أسبانيا على الأغنام المهجنة أنه كان يفرض عقوبة الإعدام على كل من يهرب رأساً من هذه الأغنام إلى أى بلد آخر .

وهكذا وجد العرب عند دخولهم مصر أصواناً جيدة لصناعة المنسوجات فصادف ذلك هوى فى نفوسهم وذلك لما نعرفه من حب العربى ساكن البادية من اهتمامه بأغنامه وتفضيله الملابس الصوفية على غيرها من الملابس المصنوعة من الكتان أو الحرير ، وقد امتازت أصواف مصر بالجودة وأنها تبعث على الدفء حتى قيل أن الخليفة الأموى معاوية بن أبى سفيان كان لا يدفء حتى يلبس برد مدينة أسيوط الصوفية . واستمرت مصر الإسلامية تعنى بالمنسوجات الصوفية فى العصر الفاطمى والمملوكى رغم دخول خامة القطن وازدياد انتشار المنسوجات الحريرية وكانت المنسوجات الصوفية منذ العصر الفرعونى من أهم الخامات التى زخرفت بطريقة التطريز واستمرت المنسوجات الصوفية المطرزة فى العصر القبطى فالإسلامى وحتى العصر العثمانى فالعصر الحديث .

وقد أولى علماء الآثار الإسلامية طريقة غزل الصوف والكتان كثيراً من اهتمامهم

واتخذوا منها دليلاً لنسبة قطعة ما من النسيج إلى بلد بذاته ، فقد أجمع كل من عرض للكتابة عن الخيوط المغزولة سواء كانت من الكتان أو الصوف على أن ما يبرم منها جهة اليسار كان من صناعة مصر ويرمزون إليها بحرف (S) . وأن الخيوط التى غزلت جهة اليمين صنعت خارج مصر ويرمزون إليها بحرف (Z) . وقد استثنى من النظرية السابقة القطع التى نسجت على نول السحب والجبد (draw-loom) فى العصر القبطى واستعمل فى نسجها خيوط الصوف والكتان ونسجت بطريقة المنسوجات المركبة .

أما الأستاذة الدكتورة سعاد ماهر فتقول : "أنها بالكشف على القطع الأثرية المصنوعة من الصوف والكتان وكذا القطع المصنوعة من كلا الخامتين وجدت أن كلا البرمين وجدا جنباً إلى جنب فى القطعة الواحدة منذ أقدم العصور وحتى العصر الحديث. وإن كانت قد لاحظت أن الخيوط الرفيعة برمت جهة اليسار أما الخيوط السميكة فبرمت جهة اليمين" لمزيد من التفصيل راجع (ثريا نصر - رسالة الماچستير ١٩٧٢ ، النسيج المطرز فى العصر العثمانى ٢٠٠٠) .

الحرير :

يعتبر الحرير ثالث خامات النسيج الطبيعية أهمية بالنسبة لمصر فى العصور الوسطى. وقد استخدمه الإنسان فى الملبس منذ زمن بعيد ، فقد عرف الصينيون طرق غزل ونسج الخيوط المستخرجة من شرانق الحرير منذ ثلاثة ألاف سنة قبل الميلاد أو يزيد ، واحتفظوا بسره حقبة طويلة من الزمن .

على أنه من الثابت أن قدماء المصريين لم يستخدموا هذه الخامة فى منسوجاتهم ، ويقول الأستاذ الدكتور محمد عبد العزيز مرزوق : "لعل السبب فى ذلك يرجع إلى انقطاع الصلة التجارية بينهم وبين الصين . ولكن مصر عرفت المنسوجات الحريرية منذ عصر البطالمة ، وكانت من أهم السلع التجارية فى الإسكندرية ، واستمر الحال على ذلك حتى العصر الرومانى . وفى القرن السادس الميلادى انقطع الوارد من الحرير إلى بيزنطة بسبب

الحروب بينها وبين الدولة الفارسية ، إلا أنها تمكنت فى عهد الإمبراطور جستنيان سنة ٥٥٦م من معرفة سر تربية دودة القز وصناعة الحرير .

وبرغم انتشار خامة الحرير فى منطقة الشرق الأوسط بعد معرفة سر تربية دودة القز إلا أن مصر الإسلامية لم تصنع المنسوجات الحريرية الخالصة ، بل كانت تستعمل خامة الحرير مع الخامات النسجية الأخرى كالكتان والصوف وذلك فى الأشرطة الزخرفية . فقد قام عالم الآثار جاستون فايت (Wiet) بإحصاء قطع النسيج التى تحتوى على أشرطة حريرية ، وهذه الأشرطة تحتوى على كتابات مؤرخة فوجد أنها تبلغ ٢٣١ قطعة من صناعة مصر وترجع إلى ما قبل سنة ١٠٤٥ . وهذه القطع من نسيج الكتان السادة المزخرف بشريط من الكتابة المطرزة بخيوط حريرية ، ومن هذه المجموعة يوجد عدد كبير منها بمتحف الفن الإسلامى .

ومما يسترعى النظر فى هذه القطع ، ضيق شريط الكتابة المطرز بالحرير ، أى عدم ارتفاع سيقان الحروف الكتابية وعدم وجود زخارف نباتية أو هندسية به . ولعل السبب فى ذلك القيود الدينية التى كانت مفروضة على استعمال الحرير .

على أن هذه القيود على الحرير لم تكن جديدة بل كانت موجودة قبل دخول العرب مصر. فقد أصدر أباطرة الرومان عدة مراسيم منها مرسوم سنة ٣٦٩م ، سنة ٤٠٦م ، سنة ٤٢٤م ، نصوا فيها على الحد من صناعة الحرير إلا فى الأشياء الخاصة بالقصر الإمبراطورى. كما أصدر الامبراطور ثيوديسس (Thèodesius) سنة ٤٣٨ قانوناً يحرم صناعة الحرير إلا بمصانع الجسبييم (Gossypium) الموجودة بمدينة الإسكندرية . كما ورد فى قوانين جستنيان أن الحرير القرمزى خاص بالأباطرة ولا يصنع إلا فى المصانع الامبراطورية .

ويظهر أن السبب فى تقييد صناعة الحرير والحد منها مرجعه أولاً إلى قلة وجود مادة الحرير الخام وغلاء سعره ، ويمكن أن يكون ذلك نتيجة لسوء العلاقات السياسية التى

كانت سائدة بين بيزنطة والفرس فى ذلك الوقت . كما لا يفوتنا فى هذا المقام أن نذكر السبب الدينى ، فقد اعتبر رجال الدين من المسيحيين لبس الحرير منافياً للرجولة .

أما سبب تقييد نسيج الحرير فى أوائل العصر الإسلامى فى مصر ، فيرجع إلى ما ورد فى بعض الأحاديث النبوية الشريفة من تحريم لبس الحرير على الرجال ، فقد ورد عن حذيفة ابن اليمان قال : نهانا النبى صلى الله عليه وسلم "أن نشرب فى آنية الذهب والفضة وأن نأكل فيهما وعن لبس الحرير والديباج وأن نجلس عليه" وكان لكل ذلك أثره فتوقف صنع المنسوجات الحريرية وفرض على استعمال الخيوط الحريرية فى التطريز أوامر صارمة. وبعد نقاش طويل دار حول كمية الحرير التى يسمح بوضعها فى الثوب انتهى الأمر بتحديد قدر معين من الحرير يباح نسجه فى الثوب . وصدرت الأوامر بما استقر عليه الرأى إلى المصانع لتقييدها .

ومن هنا يتضح لنا السبب فى إلتزام النساج فى أوائل العصر الإسلامى بقصر زخرفة الثوب على شريط بسيط من الكتابة المطرزة . وقد كان فى هذا التحديد مكسب كبير للحياة الفنية ، إذ ناسب الأسلوب الزخرفى الذى انتشر فى العهد الإسلامى ، وهو تزيين الملابس بأشرطة أفقية من الحرير الملون فى ثوب من الكتان أو الصوف .

على أن إلتزام هذا التحديد وتقييده لم يدم طويلاً فقد تعددت الأشرطة الحريرية الزخرفية فى الثوب الواحد فى العصر الفاطمى ، ثم اتسعت رقعة الحرير فى الأقمشة حتى شملتها كلها .

كان هذا هو وضع الحرير فى مصر حتى نهاية العصر الفاطمى أى حتى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) ، أما فى العصر المملوكى ، فقد حدث انقلاب تجارى نتيجة لانتقال طريق تجارة الشرق الأقصى من إيران والعراق بسبب استيلاء المغول عليها ، إلى البحر الأحمر ، وبذا أصبحت مصر هى الدولة المسيطرة على هذه التجارة ، ومن ثم فقد كانت تصلها كل الواردات الحريرية ، تأخذ منها ما تريد بأزهد الأثمان ثم تسمح بتصدير

الفائض عنها إلى دول حوض البحر الأبيض .

وقد أدى كثرة وجود خامة الحرير ورخص ثمنه إلى إنتشار صناعة المنسوجات الحريرية بدرجة كبيرة حتى أصبح الحرير هو الخامة الأولى فى مصر بالنسبة لصناعة المنسوجات . واستمر الحال على ذلك طوال العصر المملوكى حتى إذا ما تحول طريق التجارة من البحر الأحمر إلى طريق رأس الرجاء الصالح فى نهاية العصر المملوكى وأوائل العصر العثمانى ، حتى قل ورود الحرير وبذا قل صنع المنسوجات الحريرية .

ومهما يكن الأمر بالنسبة لتاريخ المنسوجات الحريرية فى مصر ، ولكننا نستطيع أن نقرر فى ثقة واطمئنان أن الخيوط الحريرية كانت على الأقل منذ العصر القبطى هى أنسب الخيوط فى عملية التطريز . وقد ظلت الخيوط الحريرية تشغل المركز الأول فى عملية التطريز طوال عصور مصر الإسلامية وحتى العصر الحديث . (راجع : ثريا نصر : رسالة الماچستير ١٩٧٢ ، النسيج المطرز فى العصر العثمانى ٠٠٠ ٢) .

القطن :

تعد مصر من أهم بلاد العالم إنتاجاً للقطن فى العصر الحديث ، ويرجع ذلك إلى جودة تيلة القطن المصرى ، وصفاتها الغزلية الممتازة ، ويزيد من أهمية مصر أنها تغذى العالم بأكثر احتياجاته من القطن الفاخر .

ويقتضينا البحث فى تاريخ القطن فى مصر أن نرجع إلى أيام قدماء المصريين ، أي إلى فترة سابقة للميلاد المسيحى بعدة قرون .

فمما هو جدير بالذكر ، ومما يلفت النظر أن مصر ذات الحضارة العريقة التى ترجع إلى آلاف السنين ، والتى عرفت فى عصور التاريخ القديم بنشاطها التجارى وفتوحاتها وغزواتها العديدة لم تعرف القطن ولم تستعمله فى إبان حضارتها الفرعونية القديمة وأن جميع مخلفات النسيج التى عثر عليها فى مقابر قدماء المصريين كانت مصنوعة من الكتان ، ولا يوجد لدينا إلى الآن دليل يثبت زراعة القطن بمصر فى هذا الوقت المبكر من

التاريخ ، وإن كان هذا لا ينفى معرفة قدماء المصريين للأقمشة والمنسوجات القطنية . فقد ذكر (هيرودوتس) المؤرخ اليونانى الشهير : "أن الملك أماسيس أو أحمس الثانى (٥٦٩-٥٢٥ ق.م) أحد ملوك الأسرة السادسة والعشرين أهدى درعين أحدهما إلى أهالى إسبرطة ، والثانى إلى معبد منيرفا ، وكان الدرعان مصنوعين من الكتان ومنسوج عليهما رسوم للحيوانات ومزركشين بالذهب وصوف الشجر (القطن) ، كما ذكر هيرودوتس أيضاً أنه (لم يكن يسمح للكهنة المصريين بإرتداء الملابس القطنية) وواضح من هذا أنها كانت معروفة لديهم .

وقد أجمع المؤرخون على أن الملابس القطنية كانت شائعة الإستعمال فى مصر فى عهد البطالسة . وورد ذكر القطن فى التوراة إذ جاء فيها أن عزيز مصر (فرعونها) أهدى رداءاً من القطن إلى سيدنا يوسف عليه السلام تمييزاً له عن عامة الشعب . كما ذكر القطن ضمن الكتابة المنقوشة على حجر رشيد الأثرى المشهور الذى كان السبب فى حل اللغة الهيروغليفية .

والمأثور عن الملكة كليوباترا - وهى آخر ملوك البطالسة فى مصر - أنها لم تجد هدية تقدمها إلى يوليوس قيصر فى روما أغلى من قميص مصنوع من خيوط القطن حاكته بأناملها وأنامل وصيفاتها فى ثلاثة أيام .

ولقد عثر العالم المشهور "روزللينى" (Rosellini) على بذرة قطن داخل وعاء فى إحدى المقابر القديمة بطيبة (الأقصر) وقد قال عنها "بارلاتورى" (Parlatore) العالم النباتى الإيطالى المشهور إنها بذرة القطن الشجرى .

واشتهرت مصر أيضاً فى عهد الرومان بزراعة القطن وتجارته وصناعته - غير أن انتشار الظلم فى أواخر عهدهم واختلال الأمن أدى إلى اندثار زراعة القطن وصناعته .

وإذا انتقلنا فى البحث وراء تاريخ القطن بمصر بعد الميلاد المسيحى لتبين لنا أن نبات القطن نفسه كان موجوداً فى ذلك العهد .

فقد كتب "بللينى" سنة ٧٠ ميلادية يقول "تنمو بالجزء الجنوبى فى مصر شجيرة يسميها البعض "جوسبيوم" (Gossypium) ويسميها البعض الآخر "زيلون" (Xylon) ويعرف القماش الناتج منها بإسم "زيلينا" (Xylina) وهى شجيرة قليلة الإرتفاع ثمرتها تشبه الجوزة يؤخذ من داخلها نسيج لا يضاهى فى بياضه ونعومته .

كما ورد ذكر القطن ضمن وصف "بولكس" (Pollux) (١٥٠ ميلادية) لشجرة نامية بالهند ومصر لها "ثمرة تشبه الجوزة ذات ثلاثة مصاريع تنفتح ويخرج منها صوف يستعمل فى صنع القماش" ولعل هذا أدق وصف ورد للقطن وبالأخص ما ذكره عن انشقاق الغلاف الثمرى للوزة عند النضج إلى ثلاثة مصاريع .

وكان فتح العرب لمصر فى القرن السابع الميلادى دافعاً جديداً لزراعة القطن الحولى الذى أحضروه معهم من الشام ، كما ورد ذلك فيما دونه كثير من كتاب العرب ، ولو أن العرب لم يتوسعوا فى زراعة القطن فى بلادهم ، إنما عملوا على انتشار زراعته فى مختلف بقاع العالم ، فلم تدخل زراعة القطن إلى أوروبا إلا بفضل العرب فأدخلوه فى جزيرة صقلية فى القرن التاسع الميلادى ، وفى أسبانيا فى أوائل القرن العاشر ، ثم لم يلبث أن امتدت زراعته إلى جنوب إيطاليا وما جاورها ثم انتقل إلى اليونان فى القرن الثانى عشر .

ويذكر وات (Watt) وهو عالم إنجليزى عند بحثه عن مصدر كلمة (Cotton) ومشتقاتها باللغات الإفرنجية أنها مأخوذة من كلمة قطن العربية . كما نشر المسلمون زراعة القطن بإمتداد فتوحاتهم فى جميع أنحاء القارة الإفريقية .

وورد ذكر القطن فى كتاب "تاريخ الفيوم" الذى ألفه سنة ١٢٤٣م (٦٤١هـ) أبو عثمان النابلسى الصندى حاكم الفيوم فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فقد ذكر بيانات عن زراعة القطن بكل بلد من بلاد الفيوم فى هذا الوقت . (راجع : ثريا نصر : رسالة الماچستير ١٩٧٢ ، النسيج المطرز فى العصر العثمانى ٢٠٠٠) .